

المستوى النحوي والدلالة في دراسات القدامى

الطالب : طيب نسالي
جامعة الشلف

ملخص البحث:

تفيد الدراسات الإنسانية المهمة بتاريخ الشعوب وحضاراتها أنه ما من أمة تحقق نهضتها ورفيها دونما الرجوع إلى مقومات أصالتها وعناصر هويتها من لغة وتاريخ ودين وثقافة، وإذا كانت اللغة العصب الحركي الذي ينعش تلك المقومات ويحفظ ذاكرة الأجيال المتلاحقة، فإن النحو صمام أمانها وحارس حماها. وفي هذا البحث معالجة للمستوى النحوي وعلاقته بالدلالة في دراسات القدامى من مناح مختلفة وأوجه متعددة.

Résumé :

Les études humaines concernées de l'histoire des nations et leurs civilisations ne peuvent obtenir son développement qu'elle retourne à ces racines constitutionnelles dont la langue, l'histoire, la religion, et la culture.

Si la langue est le nerf locomoteur qui anime ses racines constitutionnelles et enregistre la mémoire des générations suivies, donc la grammaire est la soupape de sa sûreté et le gardien de ses frontières.

Dans cette recherche il y a un traitement de niveau grammatical et sa relation avec la signification dans les antiques études arabes de plusieurs cotés.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فمما أصبح من البديهيات المقطوع بها ارتباط نشأة علوم العربية بالقرآن الكريم، الذي أنعش حركة فكرية وعلمية لم تشهدها العرب من قبل، فكانت غايتها فهم معناه وتذوق حلاوته، والوقوف عند أسرارهِ وإعجازه، وكذا استخراج أحكامهِ والعمل بمقتضاها الأمر الذي يفسر إنتاج ذلك الكم الهائل من المؤلفات، فلو كان القصد صوت اللسان من اللحن فحسب لما صار الأمر كذلك.

ولعل أمورا ثقافية واجتماعية وسياسية أخرى ساعدت على نمو وتطور علوم العربية والنحو بخاصة، باعتبار التحول الذي عرفه المجتمع العربي، وانتشار المد الحضاري للإسلام وظهور مذاهب فقهية و فرق إسلامية مختلفة، كما كان الأمراء والحكام ينظرون إلى العربية على أنها شأن من شؤون الدولة، ووسيلة لجمع الكلمة وتوطيد الحكم والتأسيس لدولة ناشئة ترمي إلى الريادة.

فما طبيعة هذا المستوى اللغوي؟ وما وظائفه الدلالية؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها كان هذا البحث الموسم بـ: "المستوى النحوي والدلالة في دراسات القدامى" متبعا المنهج الوصفي الملائم لدراسة طبيعة الظاهرة اللغوية في بيئتها الزمنية.

1. تمهيد حول نشأة النحو:

اعتمد اللغويون والنحاة الأوائل طريقة وصفية تقوم على الجمع والاستقراء لكلام العرب، بالخروج إلى البوادي ومشاهدة الأعراب الخالص، والسماع منهم، وتدوين المادة اللغوية، ومن ثم إخضاعها للتمحيص والاستقراء قصد استنتاج القاعدة اللغوية والنحوية¹، وكان مما هداهم إليه عملهم المنهجي وضع شروط للمادة المأخوذة ومن يؤخذ عنهم، فحدودوا دائرة الفصاحة زمانا ومكانا، فلم يأخذوا اللغة إلا عن ست قبائل موغلة في البداوة وبعيدة عن مواطن الاختلاط بالعجم.

كما جعلوا السنة خمسين ومائة حداً فاصلاً تنتهي عنده الرواية عن بعض الحضر ممن يرضون روايتهم، واستمروا يأخذون عن الأعراب البداة حتى القرن الرابع الهجري حين بدأت تفسد سلاقتهم²، مع بعض الاختلاف في التحديد الذي كان الهدف منه البحث عن المتكلم المثالي في البيئة المثالية بغية التقعيد للغة نقية أصيلة ترقى لخدمة القرآن الكريم.

2. أدلة إثبات النحو:

أ — السماع:

عرفه السيوطي: "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمّل كلام الله تعالى، وكلام نبيه، وكلام العرب قبل بعثته وزمنه إلى زمن فسدت فيه الألسنة بكثرة المولدين"³ ويبدو أن تقديس العرب للشعر جعله في مقدمة النصوص المحتجّ بها.

ب — القياس: هو عملية عقلية إبداعية يتم فيها إلحاق فرع بأصل لعلّة مشتركة بينهما، يهدف إلى تأكيد الحكم النحوي، وبمد اللغة صيغاً وتراكيب لم تكن موجودة أو لم تسمع عن العرب، مما يجعل أي لغة حية تواكب التطور، قال ابن جني(ت392هـ) "الخصائص": "ما قيس على كلام العرب فهو كلام للعرب."

ج — الإجماع: إجماع نخاة المصيرين البصرة والكوفة على حكم أو قاعدة ما.

3_ منهج التأصيل النحوي والعوامل المؤثرة فيه:

عرف النحو العربي مدرستين عريقتين بصرية وكوفية، لكل منهما طابع ومنهج خاص، يرى البصريون الكلام الفصيح وحده يدخل في دراسة النحو، بينما يتوسع الكوفيون في السماع والرواية، حتى جعلوا من الشاهد الواحد والشاذ قاعدة يبنون عليها أصولهم، وربما يكون لطبيعة البيئة والمناخ السائد يد في توجيه منحى المنهج المتبع، إذ تعد البصرة موطناً مهماً للعلوم العقلية بحكم ظهور بها الدعاة الأوائل من المعتزلة والمتكلمين، واستفادت من ثقافات الأعاجم الوافدة إليها عن طريق الترجمة والاختلاط، فاتسم منهجهم بتحكيم العقل في النصوص والتشدد في القياس، ومحاولة الوصول إلى لغة معيارية من خلال قواعد مطردة.

أما الكوفة فتعد موطن الروايات والأشعار والأخبار، كثر فيها أهل القراءات ورواة الأحاديث والمفسرون، يغلب على منهجهم التساهل في الأخذ عن العرب بتوسيع دائرة السماع، وتقديم الطابع التسجيلي لاحترام اللهجات، ومحاولة مراعاة التطور الحاصل في المجتمع العربي، وربما ساعد الخلاف الناشئ بين المدرستين أحياناً في تطور وازدهار التفكير النحوي، فجاءت قواعد النحو بعد تمعن وإطالة فكر في الوسائل التي تحفظ اللغة، وتحيط القرآن بسياج يمنع تسرب اللحن إليه.

ومهما يكن أمر فإن النحو نشأ في جو إسلامي عام كبقية العلوم أمدته القراءات بالنقل والاعتماد على الرواية، وأمدته أصول الفقه والكلام بالطابع العقلي الذي جعله لا يتوقف عند ظواهر اللغة توقف الوصف المباشر — كما كان عليه في بادئ الأمر — وإنما يتعداه إلى تفسير الظواهر تفسيراً عقلياً يقوده إلى القوانين المطردة التي يراها النحاة فيما وراء الاستعمال، وهذا المبدأ العام ينطبق على أسلوب التأليف فنجد الواضح السهل المعتمد على الوصف والتمثيل، ونجد الأسلوب المعقد المليء بالدلالات والأقيسة المنطقية وكثرة التعليقات والتأويلات البعيدة عن طبيعة اللغة أحياناً.

3. ماهية النحو:

عدّ كثير من علماء العربية وظيفة القواعد النحوية دلالية، ولم ينظروا إليها نظرة سطحية لا تتجاوز ترتيب الألفاظ وفق نظام خاص، بل تخطوا ذلك إلى معرفة وتفسير تلك العلاقات القائمة بين المفردات والتركيب من جهة وبين التركيب والسياق الذي يرز فيه من جهة أخرى، قال السكاكي: "اعلم أن علم النحو هو أن تنحو إلى معرفة التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً"⁴

لذا فالمستوى النحوي يُعنى بالجانب التركيبي لوحدات الجملة التي تشكّل بدخولها في هذا التجانس نسقا يسمّى الوظائف النحوية، ولقد استوفت الدراسات اللغوية العربية الجملة حقّها من هذه الناحية، وتمكّنت من خلال النحو منضبط قواعد ومعايير غاية في الدقة، تمكّنت من خلالها من تفصيل الأدوار الوظيفية للكلمات.

غير أنه وعلى مستوى النص قد يعزو بعض المعاصرين _خاصة بعد اتصالنا بعلم اللغة الحديث- النحو العربي إلى القصور لأنه حسبهم انشغل بدراسة الجملة والإسراف في الإعراب عن دراسة الجملة، مما حذا الدراسات المعاصرة إلى التنويه بضرورة الاهتمام بنحو النص.

يمكن تحديد نحو النص من وجهة نظر لسانيات النص على أساس أنه نقل لمستوى نحو الجملة إلى نحو النص، وليس يعني بالضرورة قولنا "نحو النص" ظاهرة الإعراب وما يترتب عنها من توابع، ولكن يقصد من ذلك "الجانب التركيبي" للحمل في تعالقه وتشكيلها للمعنى، وهنا نذكر بفرضية البنية الكبرى التي ترى باحتواء كل نص جوهرًا ظاهرًا يمكن الوصول إليه وتبنيته بعد ذلك من خلال البنيات الثانوية التي تتوزع عبر أنحاءه.

4. تحديد الوظائف النحوية:

أما الوظيفة النحوية فهي التي تحتلّ الكلمات فيها مواقع ورتب معينة وتشير إليها علامات الإعراب، والتي تدل على نوع العلاقة الوظيفية والدلالية التي تربط بين الكلمات أو المفردات داخل التركيب، فمثلاً: "ضرب موسى عيسى"، و"ضرب عيسى موسى"، بينهما اختلاف مرده إلى اختلاف الرتبة، فالموقع أو الرتبة يصبح ذا محتوى دلالي لأنهما تظهر عليه علامات إعراب فهي أسماء مقصورة.

فالموقع هو ذاته وظيفة: فاعل، مفعول به، تمييز، صفة وغيرها من الوظائف، التي هي علاقات دلالية تربط الكلمات بعضها ببعض في الكلام أو وسط الكلام، وتزيد هذه العلاقات الدلالية تحديداً بالعلامات الإعرابية التي هي (مؤشرات إضافية)، وبالتالي تزيد في بيان نوع العلاقة النحوية والوظيفية والدلالية.

هناك مؤشرات إضافية لغوية تستعين بها اللغة لبيان نوع العلاقة الوظيفية الدلالية التي تربط الكلمات بعضها ببعض داخل التركيب أو الجمل، وهي نوعان:

أولاً- قرائن لفظية:⁵

أ - العلامات الإعرابية: نستغني أحياناً عن الرتبة فنقدمون مؤخر، ونغيّر الترتيب المعتاد للجملة من أجل غرض بلاغي فتبقى علامات الإعراب هي المؤشر الدال على الوظيفة،

ب - حروف العطف: مثلاً الواو، الباء، الفاء، وهي نوع آخر من المورفيمات ليست مستقلة ولا مقيدة، وإنما مورفيمات وظيفية تدخل تحتها الظروف وحروف المعاني والأدوات بشكل عام، فالواو تكون للقسم، أو العطف، أو الحال، أو المعية، والذي حدّد وظيفتها هو السياق، كما أن اللام تكون: للأمر، والتعليل، والجحود، والجر.

ج - الصيغة: هي البنية الصرفية للكلمة وهي قرينة لفظية ذات أهمية بالغة في تحديد الوظيفة النحوية مثال ذلك: كتب "فعل" تدل على أن شخصاً قام بفعل الكتابة أما كاتب "فاعل" فتدل على المشاركة والمراسلة بين اثنين فأكثر، فلولا التغيير في الصيغة الصرفية لما تميّزت هذه المعاني.

د - الرتبة :

هناك رتبة محفوظة: مثل تقدم الموصول على الصلة، أو الموصوف على الصفة، أو الفاعل على المضاف، أو المضاف إليه، أو أدوات الشرط والاستفهام والجزم والنفي، والتي وصفت بأن لها الصدارة دوماً.

وهناك رتبة غير محفوظة: مثل تقدم المبتدأ على الخبر والفاعل على المفعول به، أو الفعل على الحال، أو الفاعل على المفعول، وقد تكون أحيانا هي القرينة الوحيدة لكشف علامة الإسناد مثل: "ضرب موسى عيسى"، فموسى فاعل وعيسى مفعول به، استناداً إلى أن الأصل تقدم الفاعل وتأخير المفعول به، مع أن ذلك ليس رتبة محفوظة.

المطابقة: قرينة لفظية توثق الصلة بين أجزاء التركيب وتعين على إدراك العلاقات التي تربط بين المتطابقين، تكون المطابقة في العلامات الإعرابية، والشخص، والعدد، والنوع.

هـ- الربط: وهو قرينة لفظية تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر، وله دور في إبراز المطابقة بين أجزاء الكلام، ويكون الربط بالضمير مستتراً وبارزاً، فالمستتر نحو: زيدٌ قام، والبارز نحو: زيد قام أبوه.

و- التضام: وهو أن يستلزم أحد العنصرين النحويين عنصراً آخر، ويكون التضام على هيئة التلازم مثل: الموصول والصلة، وحرف الجر ومجروره، واو الحال وجمله الحال، وحرف العطف والمعطوف، مثاله: حضر من أكرمه "صلة الموصول".

ل- الأداة: هو مبنى صرفي يؤدي وظائف خاصة في التركيب النحوي، وتنبه علماء العربية الأوائل للأدوات وأثرها في فهم النصوص الدينية والآثار الأدبية.

وتنقسم الأدوات إلى:

— أدوات أصلية: لا تنتمي إلى أي مبنى صرفي سابق، وإنما هي حروف وضعت لمعان خاصة عند أهل اللغة أساساً، مثل حروف الجر والعطف.

— أدوات محوّلّة: وهي التي تنتمي إلى مباني الأسماء والأفعال والظروف لكنها أشبهت بالحرف شبهاً معنوياً، مثل: متى، أين، كيف.

ك- النغمة: وهي الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق، فهناك أشكال للتنغيم تنطق بها الجملة الاستفهامية أو المنفية أو المؤكدة أو جملة التمني أو العرض، فلكل جملة من هذه الجمل شكل أو صيغة تنغيمية خاصة بها. ثانياً- القرائن المعنوية⁶:

أ- الإسناد: وهي العلاقة الرابطة بين طرفي الإسناد كالعلاقة بين المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل وغيرهما.

ب- التخصيص: وهي قرينة معنوية تضم مجموعة من المعاني مثل التعدية، والغائية، والظرفية، والإخراج، وغيرها.

ج- التعدية: مثل قولنا ضرب عمرو زيداً، فإيقاع الضرب على زيد تخصيص لعلاقة الإسناد.

د- الغائية (السببية): أن تأتي بالمفعول لأجله على التخصيص، كقولك: أتيت رغبةً في لقاءك.

هـ- الإخراج (الاستثناء): يدل الاستثناء على أن الإسناد لا يشمل المستثنى لأنه أخرج منه، نحو قولنا: نجح الطلابُ إلا علياً، فإسناد النجاح هنا إلى الطلاب استثنى منه واحد للدلالة على إخراجه منهم.

و- الظرفية: مثل: صحت إذ تطلع الشمس، يُخصّص الإسناد بتقييده زماناً أو مكاناً.

5. حاجة الدلالة إلى الإعراب:

ذكر الزجاجي (337هـ) في (الإيضاح) في صدد إبرازه دور الإعراب في إيضاح وجلاء المعنى، خاصة إذا عزّت القرائن الأخرى فقال: "إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها، ولم يكن في صورها وأبنيته أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني فقالوا: "ضرب زيد عمراً"، فدلّوا برفع "زيد" على أن الفعل له، وبنصب "عمرو" على أن الفعل واقع به... وقد يقدّموا ما حقّه التأخير ويؤخّروا ما حقّه التقديم عند الحاجة وتكون كذلك الحركات دالة على المعاني"⁷.

ولو لم يكن الإعراب علما على المعاني كما زعم إبراهيم أنيس⁸ الذي ذهب مذهب قطرب (ت206هـ) لما التزمته العرب هذا الالتزام، ولجاز مثلا جرّ الفاعل مرة ونصبه أخرى، يقرر ابن جني (الخصائص) أن: "الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت "أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدا أبوه" علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه"⁹.

يعني لو كانت الجملة غفلا من الإعراب لاستشكل المعنى ولم يتبين الفاعل من المفعول، خاصة في حال التقديم والتأخير والتصرف في فنون القول حسبما تقتضيه الأساليب الفنية البليغة.

ومن ذلك قولك:

- ما صنعت وأباك؟ منصوب على المفعولية، أي: ما صنعت مع أباك؟

- ما صنعت وأبوك؟ مرفوع على العطف، أي: ما صنعت وصنع أبوك؟¹⁰

فالأول استفهام عن علاقة المسؤول بأبيه، والثاني استفهام عن الشيء الذي فعلاه هو وأبوه.

فانظر كيف تمتاز اللغات المعربة عن غيرها من اللغات المبنية بالثراء، والسعة في التعبير، والدقة في المعنى، والتفنن في أساليب القول.

6- الاحتمالات النحوية وأثرها في تحديد الدلالة:

إن المتأمل في كتب التفاسير والإعجاز القرآني خاصة ليجد بوضوح تلك العلاقة الطبيعية القائمة بين العلامة النحوية والمعنى، ومن المؤكد أن كل وجه نحوي يتميز بخصائص دلالية عن غيره، وهذا المنحى الذي ينسجم مع النص القرآني فنج عليهمعظم اللغويون والمفسرون والأصوليون القدماء، خاصة وأن النص القرآني تفنن الأعمار ولا تنقضي أسرارهِ وعجائبهِ¹¹، ولا يبلغ بك الحدّ درجة الإحاطة بمعانيهِ المطلقة.

قرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب (وأرجلكم) عطفا على (أيديكم)، فيكون حكمها الغسل كالوجه واليدين، وقرأ غيرهم بالجر¹²، عطفا على (برؤوسكم)، فيكون حكمها إذن المسح كالأرجل، فانظر كيف يتغيّر الحكم الشرعي بناءً على تغيّر الحكم النحوي الذي قد ينتج عن تغير حركة إعرابية واحدة.

خاتمة:

يمكن إجمال أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث كالتالي:

1. نشأ النحو العربي نشأة أصلية في جو إسلامي عام مؤثرا في علوم عصره ومتأثرا بها.
2. اعتماد النحو طريقة المواجهة بين الاستقراء الوصفي والاستدلال المنطقي أعطى مفهوما لطبيعة اللغة، وتفسيرا واضحا لظواهرها، وأكد على عبقرية اللغويين وجهودهم لا تُنكر.
3. إن وظيفة القواعد النحوية دلالية حيث يتأزر المعنى المعجمي للمفردة مع معناها الوظيفي النحوي في التركيب، إضافة إلى السياق لإعطاء الدلالة العامة للنص.
4. تُعدّ قرينة السياق من أهم القرائن المبينة للمعنى بعد قرينة الإعراب النحوية، فقد يتعذر فهم نص ما بمعزل عن سياقه العام، لذا احتفى علماء الأصول والمفسرون بمعرفة أسباب نزول القرآن ومختلف الأحداث المرافقة له.
5. أفاد كثير من الأصوليين من جهود اللغويين والنحاة في تخريج أوجه القراءات، وتفسير معانيها، واستنباط ما يترتب عنها من أحكام فقهية.

6. إن مواكبة تطور العصر تقتضي منا الاستفادة من علم اللغة الحديث في إعادة قراءة التراث وتصويب ما قد يشوبه، ثم بعثه من جديد.
7. تتجه الدراسات اللسانية الحديثة إلى نحو النص أكثر، بينما اهتم القدامى بنحو الجملة باعتبارها المنطلق أساس لفهم النص ودراسته، وقد سبقوا المحدثين في كثير من القضايا التي بنت عليها اللسانيات الحديثة أصولها. قائمة المصادر والمراجع:
- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
1. — حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار القطر العربي، القاهرة، دط، 1998.
 2. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 5، 1984.
 3. ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط 3، دت.
 4. ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تح: عبد الجليل عبدو شلي، دار الحديث، مصر، ط 2، 1997.
 5. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، دط، 1994.
 6. الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، مصر، دط، دت.
 7. الرماني، النكت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد زغلول سلام، ومحمد خلف الله، دار المعارف، القاهرة، ط 4، دت.
 8. الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن مبارك، دار النفائس، بيروت، ط 4، 1982.
 9. سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية دمشق، دط، 1994.
 10. السكاكي، مفتاح العلوم، تح: أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة، بغداد، ط 1، 1982.
 11. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988.
 12. السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تح: محمود ياقوت، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، دط، 2006.
 13. عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة، بيروت، دط، 1979.
 14. علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب القاهرة، دط، 2007.
 15. علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب، القاهرة، دط، 2007.
 16. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، دار الفرقان، عمان، ط 4، 1997.
 17. هادي نمر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، دار الأمل، الأردن، ط 1، 2007.

